﴿فزادتهم رجسًا إلى رجسهم﴾ كفرًا مضمومًا إلى كفرهم؛ لأنهم كلما جددوا بتجديد الله الوحي كفرًا ونفاقًا أزاد كفرهم واستحكم وتضاعف عقابهم.

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾.

قرئ: أو لا يرون بالياء والتاء ﴿يفتنون﴾ يبتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء الله ثم لا ينتهون ولا يتوبون عن نفاقهم ولا يذكرون ولا يعتبرون ولا ينظرون في أمرهم، أو يبتلون بالجهاد مع رسول الله ﷺ ويعاينون أمره وما ينزل الله عليه من نصرته وتأييده، أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهود مع رسول الله ﷺ فيقتلهم وينكل بهم ثم لا ينزجرون.

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾.

﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ تغامزوا بالعيون إنكارًا للوحي وسخرية به قائلين ﴿هل يراكم من أحد﴾ من المسلمين لننصرف فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك فنخاف الافتضاح بينهم، أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لواذًا يقولون: هل يراكم من أحد، وقيل: معناه وإذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين ﴿صرف الله قلوبهم﴾[1] دعاء عليهم بالخذلان ويصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿قوم لا يفقهون﴾ لا يتدبرون حتى يفقهوا.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾.

﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم، ثم ذكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي: شديد عليه شاق لكونه بعضًا منكم عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب ﴿حريص عليكم﴾ حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رؤوف رحيم﴾. وقرئ: من أنفسكم أي: من أشرفكم وأفضلكم، وقيل: هي قراءة رسول الله ﷺ، وفاطمة وعائشة رضي الله عنهما، وقيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ في قوله: ﴿رؤوف رحيم﴾.

فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾.

﴿فإن تولوا﴾ فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك، فاستعن وفوض إليه فهو كافيك معرتهم ولا يضرونك وهو ناصرك عليهم. وقرئ: العظيم بالرفع، وعن ابن عباس رضي الله عنه: العرش لا يقدر أحد قدره، وعن أبي بن كعب: آخر آية نزلت: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ عن رسول الله ﷺ: «ما نزل علي القرآن إلا آية آية وحرفًا حرفًا ما خلا سورة، براءة وقل هو الله أحد، فإنهما أنزلتا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس مكية

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾.

﴿الر﴾ تعديد للحروف على طريق التحدي و﴿تلك آيات الكتاب﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة و ﴿الحكيم﴾ ذو الحكمة لاشتماله عليها ونطقه بها، أو وصف بصفة محدثه قال الأعشى:

وغريبة تأتي الملوك حكيمة ... قد قلتها ليقال من ذا قالها

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾.

الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه و﴿أن أوحينا﴾ اسم كان وعجبًا خبرها وقرأ ابن مسعود: عجب فجعله اسمًا وهو نكرة وأن أوحينا خبرًا وهو معرفة كقوله: يكون مزاجها عسل وماء. والأجود أن تكون كان تامّة وأن أوحينا بدلاً من عجب.

فإن قُلْتَ: فما معنى اللام في قوله: ﴿أكان للناس عجبًا﴾ وما الفرق بينه وبين قولك أكان عند الناس عجبًا؟ قُلْتُ: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علمًا لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في عند الناس هذا المعنى والذي تعجبوا منه أن يوحي إلى بشر، وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العجب أنّ الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأن يذكر لهم

(1) قال أحمد: يحتمل الدعاء، كما فسره، ويحتمل الإخبار بأن الله صرف قلوبهم، أي: منعها من تلقي الحق بالقبول، ولكن الزمخشري يفرّ من جعله خبراً؛ لأنّ صرف القلوب عن الحق لا يجوز على الله تعالى عنده بناء على قاعدة الصلاح، والأصلح، ولا يزال يؤوّل الظاهر، إذا اقتضى ذلك، كما مرّ له في قوله ختم الله على قلوبهم، فلما احتملت هذه الآية الدعاء، والخبر على حدّ سواء =

= تعين عنده جعلها دعاء، ثم في هذا الدعاء مناسبة للفعل الصادر منهم، وهو الانصراف، كقوله: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم﴾، وكقوله: ﴿ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء﴾.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره.

البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأنّ الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرًا مثلهم، وقال الله تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً﴾[1] وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضًا؛ لأنّ الله تعالى إنما يختار من استحق الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوّة، والغنى والتقدّم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾[2] والبعث للجزاء على الخير والشر هو: الحكمة العظمى فكيف يكون عجبًا؟ إنما العجب العجيب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء ﴿أن أنذر الناس﴾ أن هي المفسرة؛ لأنّ الإيحاء فيه معنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، وأصله أنه أنذر الناس على معنى أن الشأن قولنا: أنذر الناس و ﴿أن لهم﴾ الباء معه محذوف ﴿قدم صدق عند ربهم﴾ أي: سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة.

فإن قلتَ[3]: لم سميت السابقة قدمًا؟ **قلتُ**: لما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدمًا كما سميت النعمة يدًا؛ لأنها تعطى باليد، وباعًا لأنّ صاحبها يبوع بها، فقيل: لفلان قدم في الخير، وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل وأنه من السوابق العظيمة، وقيل: مقام صدق ﴿**إن هذا**﴾ إن هذا الكتاب وما جاء به محمد ﴿**لسحر**﴾ ومن قرأ لساحر، فهذا إشارة إلى رسول الله ﷺ وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحرًا، وفي قراءة أبيّ: ما هذا إلا سحر.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾.

﴿**يدبر**﴾ يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة، ويفعل ما يفعل المتحري للصواب الناظر في أدبار الأمور وعواقبها لئلا يلقاه ما يكره آخرًا و ﴿**الأمر**﴾ أمر الخلق كله وأمر ملكوت السمٰوات والأرض والعرش.

فإن قلتَ: ما موقع هذه الجملة؟ **قلتُ**: قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه وملكه بخلق السمٰوات والأرض مع بسطتها واتساعها في وقت يسير وبالاستواء على العرش، وأتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره، وكذلك قوله: ﴿**ما من شفيع إلا من بعد إذنه**﴾ دليل على العزة والكبرياء كقوله: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفًا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمٰن﴾[4] و ﴿**ذلكم**﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة أي: ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو: ربكم، وهو الذي يستحق منكم العبادة ﴿**فاعبدوه**﴾ وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع ﴿**أفلا تذكرون**﴾ فإن أدنى التفكر والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم عليه.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾.

﴿**إليه مرجعكم جميعًا**﴾ أي: لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقائه ﴿**وعد الله**﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿**إليه مرجعكم**﴾ و﴿**حقًا**﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿**وعد الله**﴾ ﴿**إنه يبدو الخلق ثم يعيده**﴾ استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه وهو: أن الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو: جزاء المكلفين على أعمالهم، وقرئ: ﴿أنه يبدئ الخلق﴾ بمعنى: لأنه، أو هو منصوب بالفعل الذي نصب وعد الله أي: وعد الله وعدًا بدأ الخلق ثم إعادته، والمعنى: إعادة الخلق بعد بدئه. وقرئ: وعد الله على لفظ الفعل ويبدئ من أبدأ، ويجوز أن يكون مرفوعًا بما نصب حقًا أي: حقّ حقًا بدأ الخلق كقوله:

أحقًا عباد الله أن لست جائيًا ... ولا ذاهبًا إلا عليّ رقيب

وقرئ: حق أنه يبدئ الخلق، كقولك: حق أنّ زيدًا منطلق ﴿**بالقسط**﴾ بالعدل وهو متعلق بيجزي والمعنى: ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم أو بقسطهم وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحًا؛ لأنّ الشرك ظلم قال الله تعالى: ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾[5] والعصاة ظلام أنفسهم وهذا أوجه لمقابلة قوله: ﴿**بما كانوا يكفرون**﴾.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾.

الياء في ﴿**ضياء**﴾ منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها، وقرئ: ضئاء بهمزتين بينهما ألف على القلب بتقديم اللام على العين كما قيل: في عاق عقا والضياء أقوى من النور ﴿**وقدّره**﴾ وقدّر القمر والمعنى وقدّر مسيره ﴿**منازل**﴾ أو قدّره ذا منازل كقوله تعالى: ﴿والقمر قدّرناه منازل﴾[6] ﴿**والحساب**﴾ وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى المذكور أي: ما خلقه إلا متلبسًا بالحق الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثًا. وقرئ: يفصل بالياء.

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 95.
(2) سورة سبأ، الآية: 37.
(3) قال أحمد: لم يرد في سابقة السوء تسميتها قدماً، إما لأنّ المجاز لا يطرد، وإما أن يكون مطرداً، ولكن غلب العرف على قصرها،= كما يغلب في الحقيقة، والله أعلم.
(4) سورة النبأ، الآية: 38.
(5) سورة لقمان، الآية: 13.
(6) سورة يسٓ، الآية: 39.

خصّ المتقين؛ لأنهم يحذرون العاقبة، فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾.

﴿لا يرجون لقاءنا﴾ لا يتوقعونه أصلاً ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم المذهلة باللذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق، أو لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء، أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف **﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾** من الآخرة وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي كقوله تعالى: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾[1] **﴿واطمانوا بها﴾** وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها فبنوا شديدًا وأمّلوا بعيدًا.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾.

﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ يسدّدهم[2] بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدّي إلى الثواب ولذلك جعل **﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾** بيانًا له وتفسيرًا؛ لأنّ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، ويجوز أن يريد يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة كقوله تعالى: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾[3] ومنه الحديث: «إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة فيقول له: أنا عملك فيكون له نورًا وقائدًا إلى الجنة، والكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيئة فيقول له: أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار[4]».

فإن قُلْتَ: فلقد دلت هذه الآية على أنّ الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة هو: إيمان مقيد، وهو: الإيمان المقرون بالعمل الصالح والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور؟ **قُلْتُ:** الأمر كذلك، ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعًا فيها بين الإيمان والعمل كأنه قال: إنّ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: بإيمانهم أي: بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح وهو بين واضح لا شبهة فيه.

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾.

﴿دعواهم﴾ دعاؤهم؛ لأنّ اللهمّ نداء لله ومعناه: اللهم إنا نسبحك كقول القانت في دعاء القنوت: اللهمّ إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾[5] على معنى: أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه، وذلك ليس بعبادة إنما يلهمونه فينطقون به تلذذًا بلا كلفة كقوله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾[6] **﴿وآخر دعواهم﴾** وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح **﴿أن﴾** يقولوا **﴿الحمد لله رب العالمين﴾** ومعنى: وتحيتهم فيها سلام أنّ بعضهم يحيي بعضًا بالسلام، وقيل هي: تحية الملائكة إياهم إضافة للمصدر إلى المفعول، وقيل: تحية الله لهم، وأن هي المخففة من الثقيلة وأصله أنه الحمد لله على أن الضمير للشأن كقوله: أن هالك كل من يحفي وينتعل. وقرئ: أن الحمد لله بالتشديد ونصب الحمد.

۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾.

أصله **﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾** تعجيله[7] لهم الخير فوضع **﴿استعجالهم بالخير﴾** موضع تعجيله لهم الخير إشعارًا بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم، والمراد: أهل مكة، وقولهم: ﴿فأمطر علينا حجارة﴾[8] من السماء يعني: ولو

---

(1) سورة التوبة، الآية: 38.

(2) قال أحمد: هو يقرّر بذلك زعمه في أنّ شرط دخول الجنة العمل الصالح، وأنّ من لم يعمل مخلد في النار، كالكافر، وأنى له ذلك، وقد جعلا الله سبب الهداية إلى الجنة مطلق الإيمان، فقال يهديهم ربهم بإيمانهم، وقول الزمخشري أنّ المراد إضافة العمل لا ينتهض عن حيز الدعوى، فإنّ الله لم يعلل بغير الإيمان، وإن جرى لغيره ذكر أوّلاً، فلا يلزم إجراؤه ثانياً، ولا محوج إليه، وشبهته أنّ الإيمان المجهول سبباً مضاف إلى ضمير الصالحين، فيلزم أخذ الصلاح قيداً في التسبب، وهو ممنوع، فإنّ الضمير إنما يعود على الذوات، لا باعتبار الصفات، وقد تقدمت لهذه المباحثة أمثال، وأشكال، والله الموفق.

(3) سورة الحديد، الآية: 12.

(4) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب: الزهد، باب: كلام ابن عمر 13/ 324.

(5) سورة مريم، الآية: 48.

(6) سورة الأنفال، الآية: 35.

(7) قال أحمد: وهذا أيضاً من تنبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم على دقة نظره شاهدة وبينة، ولا يكاد وضع المصدر مؤكداً، أو مقارناً لغير فعله في الكتاب العزيز، يخلو من مثل هذه الفائدة الجليلة، والنحاة غايتهم أن يقولوا في قوله تعالى، والله أنبتكم من الأرض نباتاً أنه أجرى المصدر على الفعل مقدراً عدم الزيادة، أو هذا المصدر لفعل دل عليه المذكور تقديره نبتم نباتاً، ولا يزيدون على ذلك، وإذا رجع الفطن قريحته، وناجى فكرته هل قرن المصدر في كتاب بغير فعله لفائدة، أو لا تسور بلطف النظر على مثل هذه الفوائد العلية مراتبها، فالفائدة، والله أعلم في اقتران قوله نباتاً، بقوله أنبتكم التنبيه على تحتم نفوذ القدرة في المقدور، وسرعة إمضاء حكمها، حتى كان إنبات الله لهم نفس نباتهم، أي: إذا وجد من الله الإنبات وجد لهم النبات حتماً، فكان أحد الأمرين عين الآخر، فقرن به، والله أعلم.

(8) سورة الأنفال، الآية: 32.

عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿لقضي إليهم أجلهم﴾ لأميتوا وأهلكوا، وقرئ: لقضى إليهم أجلهم على البناء للفاعل وهو الله عز وجل، وتنصره قراءة عبد الله: لقضينا إليهم أجلهم.

فإن قُلْتَ: فكيف اتصل به قوله: ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ وما معناه؟ قُلْتُ: قوله: ﴿ولو يعجل الله﴾ متضمن معنى نفي التعجيل كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشر ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم ﴿في طغيانهم﴾ أي: فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزامًا للحجة عليهم.

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾.

﴿لجنبه﴾ في موضع الحال بدليل عطف الحالين عليه أي: دعانا مضطجعًا ﴿أو قاعدًا أو قائمًا﴾.

فإن قُلْتَ: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟ قُلْتُ: معناه: أن المضرور لا يزال داعيًا لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها: كان منبطحًا عاجز النهض متخاذل النوم، أو كان قاعدًا لا يقدر على القيام، أو كان قائمًا لا يطيق المشي، والمضطرب إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة بتمامها، ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشدّ حالاً وهو صاحب الفراش، ومنهم من هو أخف، وهو: القادر على القعود، ومنهم المستطيع للقيام، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء؛ لأنّ الإنسان للجنس ﴿مرّ﴾ أي: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ونسي حال الجهد، أو مرّ عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به ﴿كأن لم يدعنا﴾ كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن قال: كأن ثدياه حقان. ﴿كذلك﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زين للمسرفين﴾ زين الشيطان بوسوسته، أو الله بخذلانه وتخليته ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الإعراض عن الذكر واتباع الشهوات.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾.

﴿لما﴾ ظرف لأهلكنا والواو في ﴿وجاءتهم﴾ للحال أي: ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالحجيج والشواهد على صدقهم وهي: المعجزات وقوله: ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ يجوز أن يكون عطفًا على ﴿ظلموا﴾ وأن يكون اعتراضًا، واللام لتأكيد النفي يعني: وما كانوا يؤمنون حقًا، تأكيدًا لنفي إيمانهم وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم وأن الإيمان مستبعد منهم، والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسل وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الجزاء يعني: الإهلاك ﴿نجزي﴾ كل مجرم وهو: وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ وقرئ: يجزي بالياء.

ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾.

﴿ثم جعلناكم﴾ الخطاب للذين بعث إليهم محمد ﷺ أي: استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكنا ﴿لننظر﴾ أتعلمون خيرًا أم شرًا فنعاملكم على حسب عملكم و ﴿كيف﴾ في محل النصب بتعلمون لا ينتظر؛ لأن معنى الاستفهام فيه يحجب أن يتقدّم عليه عامله.

فإن قُلْتَ[1]: كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة؟ قُلْتُ: هو مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشيء موجودًا، شبه بنظر الناظر وعيان المعاين في تحققه.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾.

غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين فقالوا: ﴿ائت بقرآن﴾ آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك ﴿أو بدله﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها. فأمر بأن يجيب عن التبديل؛ لأنه داخل تحت قدرة الإنسان وهو: أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل، وأن يسقط ذكر الآلهة، وأما الإتيان بقرآن آخر فغير مقدور عليه للإنسان ﴿ما يكون لي﴾ ما ينبغي لي وما يحل كقوله تعالى: ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾[2] ﴿أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ من قبل نفسي، وقرئ: بفتح التاء، من غير أن يأمرني بذلك ربي ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾ لا آتي ولا أذر شيئًا من نحو ذلك إلا متبعًا لوحي الله وأوامره، إن نسخت آية تبعت النسخ، وإن بدلت آية مكان آية تبعت التبديل، وليس إليّ تبديل ولا نسخ ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾ بالتبديل والنسخ من عند نفسي ﴿عذاب يوم عظيم﴾.

فإن قُلْتَ: أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا: ﴿ائت بقرآن غير هذا﴾؟ قُلْتُ: بلى

---

(1) قال أحمد: وكنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله، والجمع بين هذين النزغتين، عقيدة طائفة من القدرية، يقولون إن الله لا يرى، ولا يرى تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وتقدم إبطال= = دعواهم أن النظر يستلزم المقابلة، والجسمية، فلا نعيده، والله الموفق.

(2) سورة المائدة، الآية: 116.

ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، وكانوا يقولون: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾[1] ويقولون: ﴿افترى على الله كذبًا﴾[2] فينسبونه إلى الرسول ويزعمونه قادرًا عليه وعلى مثله، مع علمهم بأن العرب مع كثرة فصحائها وبلغائها إذا عجزوا عنه كان الواحد منهم أعجز.

فإن قُلْتَ: لعلهم أرادوا ائت بقرآن غير هذا أو بدله من جهة الوحي كما أتيت بالقرآن من جهته؟ وأراد بقوله: ﴿ما يكون لي﴾ ما يتسهل لي وما يمكنني أن أبدله **قُلْتُ**: يردّه قوله: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾.

فإن قُلْتَ: فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح **قُلْتُ**: الكيد والمكر، أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير فللطمع ولاختبار الحال وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه أو لا يهلكه فيسخروا منه ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحًا لافترائه على الله.

قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾.

﴿لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾ يعني: أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمرًا عجيبًا خارجًا عن العادات وهو: أن يخرج رجل أميّ لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء، فيقرأ عليكم كتابًا فصيحًا ينهر كل كلام فصيح ويعلو على كل منثور ومنظوم، مشحونًا بعلوم من علوم الأصول والفروع وأخبار مما كان وما يكون، ناطقًا بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعون على أحواله ولا يخفى عليكم شيء من أسراره، وما سمعتم منه حرفًا من ذلك ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به **﴿ولا أدراكم به﴾** ولا أعلمكم به على لساني، وقرأ الحسن: ولا أدراتكم به على لغة من يقول: أعطاته وأرضاته في معنى: أعطيته وأرضيته، وتعضده قراءة ابن عباس ﴿ولا أنذرتكم به﴾، ورواه الفراء: ولا أدرأتكم به بالهمز وفيه وجهان: أحدهما: أن تقلب الألف همزة كما قيل: لبأت بالحج، ورثأت الميت، وحلأت السويق، وذلك لأنّ الألف والهمزة من واد واحد، ألا ترى أنّ الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة، والثاني: أن يكون من درأته إذا دفعته وأدرأته إذا جعلته دارئًا، والمعنى: ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤونني بالجدال وتكذبونني، وعن ابن كثير: ولأدراكم به بلام الابتداء لإثبات الإدراء ومعناه: لو شاء الله ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري، ولكنه يمن على من يشاء من عباده، فخصني بهذه الكرامة ورآني لها أهلاً دون سائر الناس **﴿فقد لبثت فيكم عمرًا﴾** وقرئ: عمرًا بالسكون يعني: فقد أقمت فيما بينكم يافعًا وكهلاً فلم تعرفوني متعاطيًا شيئًا من نحوه ولا قدرت عليه ولا كنت متواصفًا بعلم وبيان فتتهموني باختراعه **﴿أفلا تعقلون﴾** فتعلموا أنه ليس إلا من الله لا من مثلي، وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم: **﴿ائت بقرآن غير هذا﴾** من إضافة الافتراء إليه.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾.

﴿ممن افترى على الله كذبًا﴾ يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في قولهم: إنه ذو شريك وذو ولد، وأن يكون تفاديًا مما أضافه إليه من الافتراء.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾.

﴿ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ الأوثان التي هي جماد لا تقدر على نفع ولا ضر، وقيل: إن عبدوها لم تنفعهم وإن تركوا عبادتها لم تضرهم، ومن حق المعبود أن يكون مثيبًا على الطاعة معاقبًا على المعصية، وكان أهل الطائف يعبدون اللات، وأهل مكة العزى ومناة وهبل وأسافًا ونائلة **﴿و﴾** كانوا **﴿يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾** وعن النضر بن الحرث: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى **﴿أتنبئون الله بما لا يعلم﴾** أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله، وإذا لم يكن معلومًا له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات لم يكن شيئًا؛ لأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه فكان خبرًا ليس له مخبر عنه.

فإن قُلْتَ: كيف أنبؤا الله بذلك؟ **قُلْتُ**: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأنّ الذي أنبؤا به باطل غير منطو تحت الصحة، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل بما لا يعلمه، وقرئ: أتنبؤن بالتخفيف، وقوله: **﴿في السموات ولا في الأرض﴾** تأكيد لنفيه؛ لأنّ ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم **﴿تشركون﴾** قرئ: بالتاء والياء وما موصولة أو مصدرية أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به، أو عن إشراكهم.

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾.

﴿وما كان الناس إلا أمّة واحدة﴾ حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل، وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارًا **﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾**

(1) سورة الأنفال، الآية: 31.
(2) سورة سبأ، الآية: 8.

وهو: تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ عاجلاً فيما اختلفوا فيه، ولميز المحق من المبطل، وسبق كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف وتلك دار ثواب وعقاب.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وقالوا: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها، وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرّد وانهماكهم في الغيّ ﴿فقل إنما الغيب لله﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به يعني: أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو ﴿فانتظروا﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات. سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله ﷺ ويكيدونه.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وإذا الأولى للشرط والآخرة جوابها وهي للمفاجأة، والمكر إخفاء الكيد وطيه من الجارية الممكورة المطوية الخلق، ومعنى ﴿مستهم﴾ خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم.

فإن قُلْتَ: ما وصفهم بسرعة المكر فكيف صح قوله ﴿أسرع مكرًا﴾؟ **قُلْتُ:** بلى دلت على ذلك كلمة المفاجأة كأنه قال: وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجؤا وقوع المكر منهم وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مس الضراء ولم يتلبثوا ريثما يسيغون غصتهم والمعنى: أنّ الله تعالى دبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام ﴿إن رسلنا يكتبون﴾ إعلام بأنّ ما تظنونه خافيًا مطويًا لا يخفى على الله وهو منتقم منكم. وقرئ: يمكرون بالتاء والياء وقيل: مكرهم قوله: سقينا بنوء كذا، وعن أبي هريرة: إنّ الله ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا[1]. قرأ زيد بن ثابت: ينشركم ومثله قوله: ﴿فانتشروا في الأرض﴾[2] ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾[3].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

فإن قُلْتَ: كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟ **قُلْتُ:** لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيزها كأنه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظنّ للهلاك والدعاء بالإنجاء[4].

فإن قُلْتَ: ما جواب إذا؟ **قُلْتُ:** جاءتها.

فإن قُلْتَ: فدعوا؟ **قُلْتُ:** بدل من ظنوا؛ لأنّ دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به.

فإن قُلْتَ: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ **قُلْتُ:** المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح.

فإن قُلْتَ: ما وجه قراءة أمّ الدرداء: في الفلكي بزيادة يائي النسب؟ **قُلْتُ:** قيل: هما زائدتان كما في الخارجي والأحمري، ويجوز أن يراد به اللجّ والماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلا فيه، والضمير في ﴿جرين﴾ للفلك؛ لأنه جمع فلك كالأسد في فعل أخي فعل، وفي قراءة أمّ الدرداء

---

(1) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (الحديث رقم: 229).

(2) سورة الجمعة، الآية: 10.

(3) سورة الروم، الآية: 20.

(4) قال أحمد: وهذه أيضاً من نكته التي لا يكتنه حسنها، وقد مر لي قبل الوقوف عليها مثل هذا النظر بعينه في توأمتها، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح، فإن آنستم منهم رشداً، فادفعوا إليهم أموالهم﴾ وقد استدل الزمخشري بها، لأبي حنيفة في أن الصغير يبتلي قبل البلوغ أن يسلم إليه قدر من المال يمتحن فيه، خلافاً لمالك، فإنه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ، قال الزمخشري ووجه الاستدلال أنّ الله تعالى، جعل = البلوغ غاية الابتلاء، فيلزم وقوع الابتلاء قبله ضرورة كونه مغيابه، واعترضت هذا الاستدلال فيما سلف، بأنّ المجعول غاية هو حمله ما في حيز، حتى من البلوغ مقروناً بإيناس الرشد، وهذا المجموع هو الذي يلزم وقوعه بعد الابتلاء، ولا يلزم من ذلك أن يقع كل واحد من مفرديه بعد الابتلاء، بل من الممكن أن يقع أحدهما قبل، والآخر بعد فلا يحصل المجموع إلا بعد الابتلاء، ويوضح ذلك هذه الآية، فإنه تعالى جعل غاية تسييرهم في الفلك كونهم فيها مضافاً إلى ما ذكر معه، ونحن نعلم أنّ كونهم في الفلك، وذلك أحد ما جعل غاية متقدّم على التسيير، وإن كان المجموع واقعاً، كوقوع الحادثة بجملتها بعد الكون في الفلك، والله أعلم، وإنما بسطت القول ههنا لفواته، ثم فجدّد بما مضى عهداً.

للفلك أيضًا؛ لأنّ الفلكي يدلّ عليه ﴿جاءتها﴾ جاءت الريح الطيبة أي تلقتها، وقيل: الضمير للفلك من كل مكان من جميع أمكنة الموج ﴿أحيط بهم﴾ أي: أهلكوا، جعل إحاطة العدوّ بالحي مثلًا في الهلاك ﴿مخلصين له الدين﴾ من غير إشراك به؛ لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه ﴿لئن أنجيتنا﴾ على إرادة القول، ولأن دعوا من جملة القول.

فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿يبغون في الأرض﴾ يفسدون فيها ويعبثون متراقين في ذلك ممعنين فيه من قولك: بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿بغير الحق﴾ والبغي لا يكون بحق؟ قُلْتُ: بلى وهو: استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة. قرئ: متاع الحياة الدنيا بالنصب.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين القراءتين؟ قُلْتُ: إذا رفعت كان المتاع خبرًا للمبتدأ الذي هو بغيكم، وعلى أنفسكم صلته كقوله: نبغى عليهم، ومعناه: إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم يعني: بغى على بعض منفعة الحياة الدنيا لا بقاء لها، وإذا نصبت فعلى أنفسكم خبر غير صلة معناه: إنما بغيكم وبال على أنفسكم ومتاع الحياة الدنيا في موضع المصدر المؤكد كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون الرفع على هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام، وعن النبي ﷺ أنه قال: «لا تمكر ولا تعن ماكرًا، ولا تبغ ولا تعن باغيًا، ولا تنكث ولا تعن ناكثًا، وكان يتلوها»(1). وعنه عليه الصلاة والسلام: «أسرع الخير ثوابًا صلة الرحم، وأعجل الشرّ عقابًا البغي واليمين الفاجرة»(2). وروي «ثنتان يعجلهما الله تعالى في الدنيا البغي، وعقوق الوالدين»(3) وعن ابن عباس رضي الله عنه: لو بغى جبل على جبل لدك الباغي(4)، وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه.

يا صاحب البغي إنّ البغي مصرعة	فاربع فخير فعال المرء أعدله
فلو بغى جبل يومًا على جبل	لاندكّ منه أعاليه وأسفله

وعن محمد بن كعب: ثلاث من كنّ فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر قال الله تعالى: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾.

هذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطامًا بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه ﴿فاختلط به﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضًا ﴿أخذت الأرض زخرفها وازّينت﴾ كلام فصيح، جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين، وأصل ازّينت تزينت فادغم وبالأصل قرأ عبد الله، وقرئ: وازينت على أفعلت من غير إعلال الفعل كأغيلت أي: صارت ذات زينة، وازيانت بوزن ابياضت ﴿قادرون عليها﴾ متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها ﴿أتاها أمرنا﴾ وهو: ضرب زرعها ببعض العاهات بعدًا منهم واستيقانهم أنه قد سلم ﴿فجعلناها﴾ فجعلنا زرعها ﴿حصيدًا﴾ شبيهًا بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله ﴿كأن لم تغن﴾ كأن لم يغن زرعها أي: لم ينبت على حذف المضاف في هذه المواضع لا بدّ منه وإلا لم يستقم المعنى، وقرأ الحسن: كأن لم يغن بالياء على أنّ الضمير للمضاف المحذوف الذي هو الزرع، وعن مروان أنه قرأ على المنبر: كأن لم تتغن بالأمس من قول الأعشى:

طويل الثواء طويل التغني

والأمس مثل في الوقت القريب كأنه قيل: كأن لم تغن آنفًا.

وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾.

﴿دار السلام﴾ الجنة أضافها إلى اسمه تعظيمًا لها، وقيل: السلام السلامة؛ لأنّ أهلها سالمون من كل مكروه، وقيل: لفشوّ السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم ﴿إلا قيلا سلامًا سلامًا﴾(5) ﴿ويهدي﴾ ويوفق ﴿من يشاء﴾ وهم الذين علم أنّ اللطف يجدي عليهم؛ لأنّ مشيئته تابعة لحكمته ومعناه: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يدخلها إلا المهديون.

۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ

(1) رواه الحاكم في المستدرك 2/338.
(2) رواه أبو يعلى في مسنده (الحديث رقم: 4512).
(3) رواه البخاري في الأدب المفرد 2/48 باب: البغي (الحديث رقم: 591).
(4) رواه البيهقي في الشعب، باب: في تحريم أعراض الناس (الحديث رقم: 6693).
(5) سورة الواقعة، الآية: 26.

كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

﴿الحسنى﴾ المثوبة الحسنى ﴿وزيادة﴾ وما يزيد على المثوبة وهي التفضل ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ويزيدهم من فضله﴾[1] وعن عليّ رضي الله عنه: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحسنى الحسنة والزيادة عشر أمثالها، وعن الحسن رضي الله عنه: عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وعن مجاهد رضي الله عنه: الزيادة مغفرة من الله ورضوان، وعن يزيد بن شجرة: الزيادة أن تمرّ السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أمطركم؛ فلا يريدون شيئًا إلا أمطرتهم، وزعمت المشبهة والمجبرة: أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وجاءت بحديث مرفوع: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا هو أحب إليهم منه»[2] ﴿ولا يرهق وجوههم﴾ لا يغشاها ﴿قتر﴾ غبرة فيها سواد ﴿ولا ذلة﴾ ولا أثر هوان وكسوف بال والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار إنكارًا بما ينقذهم منه برحمته ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ترهقها قترة﴾[3] ﴿وترهقهم ذلة﴾.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ وكيف يتلاءم؟ **قُلْتُ:** لا يخلو إمّا أن يكون ﴿والذين كسبوا﴾ معطوفًا على قوله: ﴿للذين أحسنوا﴾ كأنه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وإمّا أن يقدّر وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى: جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها وهذا أوجه من الأوّل؛ لأنّ في الأوّل عطفًا على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه، وفي هذا دليل على أنّ المراد بالزيادة الفضل؛ لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله، وقرئ: يرهقهم ذلة بالياء، ﴿من الله من عاصم﴾ أي: لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ﴿مظلمًا﴾ حال من الليل، ومن قرأ قطعًا بالسكون من قوله: ﴿بقطع من الليل﴾[4] جعله صفة له وتعضده قراءة أبيّ بن كعب: كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم.

فإن قُلْتَ: إذا جعلت مظلمًا حالاً من الليل فما العامل فيه؟ **قُلْتُ:** لا يخلو إمّا أن يكون أغشيت من قبل إن من الليل صفة لقوله: ﴿قطعًا﴾ فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، وإمّا أن يكون معنى الفعل في من الليل.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

﴿مكانكم﴾ الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم و ﴿أنتم﴾ أكد به الضمير في مكانكم لسدّه مسدّ قوله الزموا ﴿وشركاؤكم﴾ عطف عليه، وقرئ: وشركاءكم على أنّ الواو بمعنى: مع والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل ﴿فزيلنا بينهم﴾ ففرّقنا بينهم وقطعنا أقرانهم والوصل التي كانت بينهم في الدنيا، أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف. وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم كقوله تعالى: ﴿ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون، ومن دون الله قالوا ضلوا عنا﴾[5] وقرئ: فزايلنا بينهم كقولك: صاعر خدّه وصعره وكالمته وكلمته ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أندادًا فأطعتموهم.

فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾

﴿إن كنا﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية وهم: الملائكة والمسيح ومن عبدوه من دون الله من أولي العقل، وقيل: الأصنام ينطقها الله عزّ وجلّ فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوا بها أطماعهم.

هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿هنالك﴾ في ذلك المقام وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿تبلوا كل نفس﴾ تختبر وتذوق ﴿ما أسلفت﴾ من العمل فتعرف كيف هو؟ أقبيح أم حسن، أنافع أم ضارّ، أمقبول أم مردود؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرّفه ليكتنه حاله ومنه قوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾[6] وعن عاصم: نبلو كل نفس بالنون ونصب كل أي: نختبرها باختبار ما أسلفت من العمل فنعرف حالها بمعرفة حال عملها إن كان حسنًا فهي سعيدة وإن كان سيئًا فهي شقية، والمعنى نفعل بها كما فعل الخابر كقوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾[7] ويجوز أن يراد نصب بالبلاء وهو: العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر، وقرئ: تتلو أي: تتبع ما أسلفت؛ لأنّ عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة، أو إلى طريق النار، أو تقرأ في صحيفتها ما قدّمت من خير أو شر ﴿مولاهم الحق﴾ ربهم الصادق ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو الذي يتولى حسابهم وثوابهم العدل الذي لا يظلم أحدًا، وقرئ: الحق بالفتح على

(1) سورة النساء، الآية: 173.
(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (الحديث رقم: 448).
(3) سورة عبس، الآية: 41.
(4) سورة هود، الآية: 81.
(5) سورة غافر، الآيتان: 73 و74.
(6) سورة الطارق، الآية: 9.
(7) سورة هود، الآية: 7.

تأكيد قوله: ﴿ردوا إلى الله﴾ كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، أو على المدح كقولك: الحمد لله أهل الحمد ﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله، أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي[1]: يرزقكم منهما جميعًا لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته ﴿من يملك السمع والأبصار﴾ من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة، أو من يحميهما ويحصنهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء بكلاءته وحفظه ﴿ومن يدبر الأمر﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصوص ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال.

فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿فذلكم﴾ إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله ﴿ربكم الحق﴾ الثابت ربوبيته ثباتًا لا ريب فيه لمن حقق النظر ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ يعني: أنّ الحق والضلال لا واسطة بينهما، فمن تخطى الحق وقع في الضلال ﴿فأنى تصرفون﴾ عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء.

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿كذلك﴾ مثل ذلك الحق ﴿حقت كلمت ربك﴾ أي: كما حق وثبت أنّ الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك ﴿على الذين فسقوا﴾ أي: تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه و ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ بدل من الكلمة أي: حق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله منهم ذلك، أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان وأنّ إيمانهم غير كائن، أو أراد لكلمة العدّة بالعذاب و ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ تعليل بمعنى؛ لأنهم لا يؤمنون.

فإن قُلْتَ: كيف قيل لهم: ﴿هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ وهم غير معترفين بالإعادة؟ قُلْتُ: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن دفعه دافع كان مكابرًا رادًا للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه، دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمرًا مسلمًا معترفًا بصحته عند العقلاء، وقال لنبيه ﷺ: ﴿قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب يعني: أنه لا يدعهم لجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم. يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين. ويقال: هدى بنفسه بمعنى: اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى: اشترى ومنه قوله: ﴿أمّن لا يهدي﴾ وقرئ: لا يهدّي بفتح الهاء وكسرها مع تشديد الدال والأصل يهتدي فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين وقد كسرت الياء لاتباع ما بعدها. وقرئ: إلا أن يهدي من هداه وهدّاه للمبالغة ومنه قولهم: يتهدّى ومعناه: أنّ الله وحده هو الذي يهدي للحق بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم وبما لطف بهم ووفقهم وألهمهم وأخطر ببالهم ووقفهم على الشرائع، فهل من شركائكم الذين جعلتم أندادًا لله أحد من أشرفهم كالملائكة والمسيح وعزير يهدي إلى الحق مثل هداية الله. ثم قال: أفمن يهدي إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع أم الذي لا يهدي أي: لا يهتدى بنفسه، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله، وقيل: معناه: أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه ﴿إلا أن يهدي﴾ إلا أن ينقل، أو لا يهتدي ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيوانًا مكلفًا فيهديه ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ بالباطل حيث تزعمون أنهم أنداد لله.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿وما يتبع أكثرهم﴾ في إقرارهم بالله ﴿إلا ظنًا﴾؛ لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم ﴿إنّ الظن﴾ في معرفة الله ﴿لا يغني من الحق﴾ وهو: العلم ﴿شيئًا﴾ وقيل: وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن، والمراد بالأكثر الجميع ﴿إنّ الله عليم﴾ وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء. وقرئ: تفعلون بالتاء.

وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿وما كان هذا القرآن﴾ افتراء ﴿من دون الله ولكنّ﴾ كان ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ وهو: ما تقدّمه من الكتب المنزلة؛ لأنه معجز دونها فهو عبارة عليها وشاهد لصحتها

---

(1) قال أحمد: وهذه الآية كافحة لوجوه القدرية الزاعمين، أن الأرزاق منقسمة، فمنها ما رزقه الله للعبد وهو الحلال، ومنها ما رزقه = العبد لنفسه، وهو: الحرام، وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا، أفأنت تسمع الصم، ولو كانوا لا يعقلون.

كقوله تعالى: ﴿هو الحق مصدقًا لما بين يديه﴾[1] وقرئ: ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب على ﴿ولكن هو تصديق... وتفصيل﴾ ومعنى: وما كان أن يفترى، وما صحّ وما استقام وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى ﴿وتفصيل الكتاب﴾ وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع من قوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾[2].

فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله: ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾؟ **قُلْتُ**: هو: داخل في حيز الاستدراك وأنه قال: ولكن كان تصديقًا وتفصيلاً منتفيًا عنه الريب كائنًا من رب العالمين، ويجوز أن يراد، ولكن كان تصديقًا من رب العالمين وتفصيلاً منه لا ريب في ذلك، فيكون من رب العالمين متعلقًا بتصديق وتفصيل أم يكون لا ريب فيه اعتراضًا كما تقول: زيد لا شكّ فيه كريم.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾.

﴿أم يقولون افتراه﴾ بل أيقولون اختلقه على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم، أو إنكار لقولهم واستبعاد، والمعنيان متقاربان ﴿قل﴾ إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فاتوا﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿بسورة مثله﴾ فأنتم مثلي في العربية والفصاحة ومعنى: بسورة مثله أي: شبيهة به في البلاغة وحسن النظم، وقرئ: بسورة مثله على الإضافة أي: بسورة كتاب مثله ﴿وادعوا﴾ من دون الله ﴿من استطعتم﴾ من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله يعني: أنّ الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره فلا تستعينوه وحده ثم استعينوا بكل من دونه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنه افتراه.

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾.

﴿بل كذبوا﴾ بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن وفاجؤه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشيء على التقليد من الحشوية إذا أحسّ بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه وإن كانت أضوأ من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكرها في أوّل وهلة واشمأز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد؛ لأنه لم يشعر قلبه إلا بصحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب.

فإن قُلْتَ: ما معنى التوقع في قوله: ﴿ولما يأتهم تأويله﴾؟ **قُلْتُ**[3]: معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليدًا للآباء، وكذبوه بعد التدبر تمردًا وعنادًا، فذمّهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرّر عليهم التحدّي ورازوا قواهم في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله فكذبوا به بغيًا وحسدًا ﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك التكذيب ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ يعني: قبل النظر في معجزات الأنبياء، وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ولكن قلدوا الآباء وعاندوا، وقيل: هو في الذين كذبوا وهم شاكون، ويجوز أن يكون معنى ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الأخبار بالغيوب أي: عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق؟ يعني: أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز، نظمه ومن جهة ما فيه من الأخبار بالغيوب، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حدّ الإعجاز، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه.

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾.

﴿ومنهم من يؤمن به﴾ يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند بالتكذيب، ومنهم من يشكّ فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال أي: ومنهم من سيؤمن به، ومنهم من سيصر ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ بالمعاندين، أو المصرين.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾.

﴿وإن كذبوك﴾ وإن تموا على تكذيبك ويئست من إجابتهم فتبرأ منهم وخلهم فقد أعذرت كقوله تعالى: ﴿فإن عصوك فقل إني بريء﴾[4] وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾.

﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوّة ولكنهم لا يصدقون. ثم قال: أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأنّ الأصم العاقل ربما تفرّس واستدل إذا وقع في

---

(1) سورة فاطر، الآية: 31.

(2) سورة النساء، الآية: 24.

(3) قال أحمد: وكان التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ربما يوهم عذراً ما= للمكذب، فجاءت كلمة لما مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه، حتى تنحسم أعذارهم، ويتحقق شقاؤهم، والله أعلم.

(4) سورة الشعراء، الآية: 216.

صماخه دوي الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعًا فقد تم الأمر. وأتحسب أنك تقدر على هداية العمي؟ ولو انضم إلى العمى وهو فقد البصر فقد البصيرة؛ لأنّ الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن، وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء، يعني: أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمي الذين لا بصائر لهم ولا عقول وقوله ﴿أفأنت. أفأنت﴾ دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عزّ وجلّ بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على ردّ الأصم والأعمى المسلوبي العقل حديدي السمع والبصر راجحي العقل إلا هو وحده.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿إن الله لا يظلم الناس شيئًا﴾ أي: لا ينقصهم شيئًا مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب. ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب، ويجوز أن يكون وعيدًا للمكذبين يعني: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لا حق بهم على سبيل العدل والاستيجاب، ولا يظلمهم الله به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سببًا فيه.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿إلا ساعة من النهار﴾ يستقربون وقت لبثهم في الدنيا، وقيل: في القبور لهول ما يرون ﴿يتعارفون بينهم﴾ يعرف بعضهم بعضًا كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً وذلك عند خروجهم من القبور، ثم ينقطع التعارف بينهم لشدّة الأمر عليهم.

فإن قلتَ: كأن لم يلبثوا﴾ و ﴿يتعارفون﴾ كيف موقعهما؟ **قلتُ:** أما الأولى: فحال من هم أي: يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة، وأما الثانية: فإما أن تتعلق بالظرف، وإما أن تكون مبينة لقوله: ﴿كأن لم يلبثوا إلا ساعة﴾ لأنّ التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكرًا ﴿قد خسر﴾ على إرادة القول أي: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله تعالى على خسرانهم، والمعنى: أنهم وضعوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر ﴿وما كانوا مهتدين﴾ للتجارة عارفين بها، وهو: استئناف فيه معنى التعجب كأنه قيل: ما أخسرهم.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾.

﴿فإلينا مرجعهم﴾ جواب ﴿نتوفينك﴾ وجواب ﴿نرينك﴾ محذوف كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة.

فإن قلتَ: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين فما معنى ثم؟ **قلتُ:** ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون، وقرأ ابن أبي عبلة ثَم: بالفتح أي: هنالك، ويجوز أن يراد أن الله مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾.

﴿ولكل أمّة رسول﴾ يبعث إليهم لينبههم على التوحيد ويدعوهم إلى دين الحق ﴿فإذا جاء﴾ هم ﴿رسولهم﴾ بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه ﴿قضي بينهم﴾ أي بين النبي ومكذبيه ﴿بالقسط﴾ بالعدل فأنجى الرسول وعذب المكذبون كقوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾[1] ولكل أمّة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان كقوله تعالى: ﴿وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق﴾[2] ﴿متى هذا الوعد﴾ استعجال لما وعدوا من العذاب استبعادًا له.

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

﴿لا أملك لنفسي ضرًا﴾ من مرض أو فقر ﴿ولا نفعًا﴾ من صحة أو غنى ﴿إلا ما شاء الله﴾ استثناء منقطع أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضر وجلب العذاب؟ ﴿لكل أمّة أجل﴾ يعني: أن عذابكم له أجل مضروب عند الله وحدّ محدود من الزمان ﴿إذا جاء﴾ ذلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة فلا تستعجلوا، وقرأ ابن سيرين: فإذا جاء آجالهم ﴿بياتًا﴾ نصب على الظرف بمعنى: وقت بيات.

فإن قلتَ: هلا قيل ليلاً أو نهارًا؟ **قلتُ:** لأنه أريد إن أتاكم عذابه وقت بيات فبيتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون كما يبيت العدو المباغت، والبيات بمعنى: التبييت كالسلام بمعنى: التسليم، وكذلك قوله: ﴿نهارًا﴾ معناه في وقت أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب ونحوه: ﴿بياتًا وهم نائمون﴾[3] ﴿ضحى وهم يلعبون﴾[4] الضمير في ﴿منه﴾ للعذاب والمعنى: أن العذاب كله مكروه مرّ المذاق موجب للنفار، فأي شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال، ويجوز أن يكون معناه:

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 15.
(2) سورة الزمر، الآية: 69.
(3) سورة الأعراف، الآية: 97.
(4) سورة الأعراف، الآية: 98.

التعجب كأنه قيل: أي شيء هول شديد يستعجلون منه، ويجب أن تكون من للبيان في هذا الوجه وقيل: الضمير في منه لله تعالى.

فإن قُلْتَ: بم تعلق الاستفهام وأين جواب الشرط؟ **قُلْتُ**: تعلق بأرأيتم؛ لأنّ المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون؟ وجواب الشرط محذوف وهو: تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه.

فإن قُلْتَ(1): فهلا قيل ماذا تستعجلون منه؟ **قُلْتُ**: أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو: الإجرام؛ لأنّ من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ويهلك فزعًا من مجيئه وإن أبطأ فضلاً أن يستعجله، ويجوز أن يكون ماذا يستعجل منه المجرمون جوابًا للشرط كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني، ثم تتعلق الجملة بأرأيتم وأن يكون **﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾** جواب الشرط، وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراضًا والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، ودخول حرف الاستفهام على ثم كدخوله على الواو والفاء في قوله: **﴿أفأمن أهل القرى﴾** **﴿أوأمن أهل القرى﴾**(2) **﴿آلآن﴾** على إرادة القول أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به **﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾** يعني: وقد كنتم به تكذبون؛ لأنّ استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار، وقرئ: **﴿آلآن﴾** بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام. **﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾** عطف على قيل المضمر قبل **﴿آلآن﴾**.

۞ وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿ويستنبئونك﴾ ويستخبرونك فيقولون **﴿أحق هو﴾** وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء، وقرأ الأعمش: آلحق هو، وهو أدخل في الاستهزاء لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل وذلك أنّ اللام للجنس فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل، أو هو الذي سميتموه الحق والضمير للعذاب الموعود و **﴿إي﴾** بمعنى: نعم في القسم خاصة كما كان هل بمعنى: قد في الاستفهام خاصة، وسمعتهم يقولون في التصديق: أو فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده **﴿وما أنتم بمعجزين﴾** بفائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾.

﴿ظلمت﴾ صفة لنفس على ولو أنّ لكل نفس ظالمة **﴿ما في الأرض﴾** أي: ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها جميع منافعها على كثرتها **﴿لافتدت به﴾** لجعلته فدية لها يقال: فداه فافتدى، ويقال: افتداه أيضًا بمعنى فداه **﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾**؛ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم، وعاينوا من شدّة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم، وبهرهم فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخًا، ولا ما يفعله الجازع سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب كما ترى المقدّم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب ويغلب حتى لا ينبس بكلمة ويبقى جامدًا مبهوتًا، وقيل: أسر رؤساؤهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم حياء منهم وخوفًا من توبيخهم، وقيل: أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها وإما من قولهم سر الشيء لخالصه، وفيه تهكم بهم وبإخطائهم وقت إخلاص الندامة، وقيل: أسروا الندامة أظهروها من قولهم لسر الشيء وأشره إذا أظهره وليس هناك تجلد **﴿وقضي بينهم﴾** أي: بين الظالمين والمظلومين دل على ذلك ذكر الظلم.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾.

ثم أتبع ذلك ذكر الإعلام بأنّ له الملك كله، وأنه المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق، وهو القادر على الإحياء والإماتة لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك فيخاف ويرجى ولا يفتريه المغترون.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾.

﴿قد جاءتكم موعظة﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد **﴿و﴾** هو **﴿شفاء﴾** أي: دواء **﴿لما في﴾** صدوركم من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق **﴿ورحمة﴾** لمن آمن به منكم.

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾.

أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح فإنه لا مفروح به أحق منهما، ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا، ويجوز أن يراد قد جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك فبمجيئها

(1) قال أحمد: وفي هذا النوع البليغ نكتتان، إحداهما: وضع الظاهر مكان المضمر، والأخرى: ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر، وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة، والمبالغة، والله أعلم.

(2) سورة الأعراف، الآية: 98.

فليفرحوا، وقرئ: فلتفرحوا بالتاء وهو الأصل والقياس وهي قراءة رسول الله ﷺ فيما روي، وعنه: «لتأخذوا مصافكم»[1] قالها في بعض الغزوات وفي قراءة أبيّ: فافرحوا ﴿وهو﴾ راجع إلى ذلك. وقرئ مما تجمعون بالياء والتاء وعن أبيّ بن كعب أنّ رسول الله ﷺ تلا: ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ فقال: «بكتاب الله والإسلام»[2] وقيل: فضله الإسلام ورحمته ما وعد عليه ﴿أرأيتم﴾ أخبروني و ﴿ما أنزل الله﴾ ما في موضع النصب بأنزل أو بأرأيتم في معنى أخبرونيه ﴿فجعلتم منه حرامًا وحلالاً﴾ أي: أنزله الله رزقًا حلالاً كله فبعضتموه وقلتم: هذا حلال، وهذا حرام كقولهم: ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾[3] ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾[4] ﴿آلله أذن لكم﴾ متعلق بأرأيتم، وقل تكرير للتوكيد والمعنى: أخبروني آلله أذن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه؟ أم تتكذبون على الله في نسبة ذلك إليه؟ ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار وأم منقطعة بمعنى بل أتفترون على الله تقريرًا للافتراء وكفى بهذه الآية زاجرة زجرًا بليغًا عن التجوز فيما يسئل عنه من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله.

وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿يوم القيامة﴾ منصوب بالظنّ وهو ظنّ واقع فيه يعني: أي شيء ظنّ المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره، وقرأ عيسى بن عمر: وما ظنّ على لفظ الفعل ومعناه: وأي ظنّ ظنوا يوم القيامة وجيء به على لفظ الماضي؛ لأنه كائن فكأن قد كان ﴿إنّ الله لذوا فضل على الناس﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾.

﴿وما تكون في شأن﴾ ما نافية والخطاب لرسول الله ﷺ والشأن الأمر وأصله الهمز بمعنى: القصد من شأنت شأنه إذا قصدت قصده والضمير في ﴿منه﴾ للشأن؛ لأنّ تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله ﷺ بل هو معظم شأنه، أو للتنزيل كأنه قيل: وما تتلو من التنزيل من قرآن؛ لأنّ كلّ جزء منه قرآن، والإضمار قبل الذكر تفخيم له أو لله عز وجل وما ﴿تعملون﴾ أنتم جميعًا ﴿من عمل﴾ أي عمل كان ﴿إلا كنا عليكم شهودًا﴾ شاهدين رقباء نحصي عليكم ﴿إذ تفيضون فيه﴾ من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه ﴿وما يعزب﴾ قرئ بالضم والكسر وما يبعد وما يغيب، ومنه: الروض العازب ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ القراءة بالنصب والرفع والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء ليكون كلامًا برأسه، وفي العطف على محل من مثقال ذرّة أو على لفظ مثقال ذرة فتحًا في موضع الجرّ لامتناع الصرف إشكالاً؛ لأنّ قولك لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب مشكل.

فإن قُلْتَ: لم قدّمت الأرض على السماء بخلاف قوله في سورة سبأ: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾[5] **قُلْتُ:** حق السماء أن تقدّم على الأرض ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله: لا يعزب عنه، لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء، على أنّ العطف بالواو حكمه حكم الثنية.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾.

﴿أولياء الله﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وقد فسر ذلك في قوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فهو توليهم إياه ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ فهو توليه إياهم، وعن سعيد بن جبير: أنّ رسول الله ﷺ سئل من أولياء الله؟ فقال: «هم الذين يذكر الله برؤيتهم»[6] يعني: السمت والهيئة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الإخبات والسكينة، وقيل: هم المتحابون في الله، وعن عمر رضي الله عنه سمعت النبيّ ﷺ يقول: «إنّ من عباد الله عبادًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله». قالوا: يا رسول الله أخبرنا من هم؛ وما أعمالهم، فلعلنا نحبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إنّ وجوههم لنور

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة صّ، (الحديث رقم: 3235).

(2) رواه ابن أبي شيبة 1/501 كتاب: فضائل القرآن، باب: في الفضل.

(3) سورة الأنعام، الآية: 138.

(4) سورة الأنعام، الآية: 139.

(5) سورة سبأ، الآية: 3.

(6) رواه ابن أبي شيبة.

وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»[1]. ثم قرأ الآية ﴿الذين آمنوا﴾ نصب أو رفع على المدح أو على الوصف الأولياء أو على الابتداء والخبر ﴿لهم البشرى﴾ والبشرى في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن النبيّ ﷺ: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»[2] وعنه عليه الصلاة والسلام: «ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات» وقيل: هي محبة الناس له والذكر الحسن، وعن أبي ذرّ: قلت لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[3] وعن عطاء: لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة﴾[4] وأمّا البشرى في الآخرة: فتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، وما يرون من بياض وجوههم، وإعطاء الصحائف بأيمانهم، وما يقرؤن منها، وغير ذلك من البشارات ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده كقوله تعالى: ﴿ما يبدّل القول لديّ﴾[5] و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين، وكلتا الجملتين اعتراض.

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

﴿ولا يحزنك﴾ وقرئ: ولا يحزنك من أحزنه ﴿قولهم﴾ تكذيبهم لك وتهديدهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك وسائر ما يتكلمون به في شأنك ﴿إنّ العزة لله﴾ استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل: ما لي لا أحزن فقيل: إنّ العزة لله جميعًا أي: إنّ الغلبة والقهر في ملكة الله جميعًا لا يملك أحد شيئًا منها لا هم ولا غيرهم، فهو يغلبهم وينصرك عليهم ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي﴾[6] ﴿إنّا لننصر رسلنا﴾[7] وقرأ أبو حيوة: أنّ العزة لله بالفتح بمعنى لأنّ العزّة على صريح التعليل، ومن جعله بدلاً من قولهم ثم أنكره فالمنكر هو يخرجه لا ما أنكر من القراءة به ﴿هو السميع العليم﴾ يسمع ما يقولون ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

﴿من في السموات ومن في الأرض﴾ يعني: العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان وإنما خصّهم ليؤذن أنّ هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم وهو سبحانه وتعالى ربهم، ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكًا له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندًا وشريكًا، وليدلّ على أنّ من اتخذ غيره ربًّا من ملك أو إنسي فضلاً عن صنم أو غير ذلك فهو مبطل تابع لما أدّى إليه التقليد وترك النظر. ومعنى وما يتبعون شركاء أي: وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء؛ لأنّ شركة الله في الربوبية محال ﴿إن يتبعون إلا﴾ ظنهم أنها شركاء ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ يحزرون ويقدرون أن تكون شركاء تقديرًا باطلاً، ويجوز أن يكون وما يتبع في معنى الاستفهام يعني: وأي شيء يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الأوّل بيتبع، وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة، ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة على من كأنه قيل: ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أي: وله شركاؤهم. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تدعون بالتاء ووجهه أن يحمل وما يتبع على الاستفهام أي: وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين يعني: أنهم يتبعون الله ويطيعونه فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾[8] ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبيون من الحق.

هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

ثم نبّه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحدوه بالعبادة بأنه جعل لهم الليل مظلمًا ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردّد في المعاش، والنهار مضيًا يبصرون فيه مطلب أرزاقهم ومكاسبهم ﴿لقوم يسمعون﴾ سماع معتبر مذكر.

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية 5/1، والبيهقي في الشعب، باب: في مقاربة وموادة أهل الدين فصل في المصافحة والمعانقة عند الالتقاء، (الحديث رقم: 8998)، رواه ابن حبان في كتاب: البر والإحسان، باب الصحبة والمجالسة، (الحديث رقم: 573)، والحاكم في المستدرك 4/420.

(2) رواه الترمذي في كتاب الرؤيا، باب قوله: «لهم البشرى في الحياة الدنيا» (الحديث رقم: 2275)، وابن ماجه في كتاب: تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له (الحديث رقم: 3898)، والحاكم في المستدرك 4/391 والإمام أحمد في المسند =
= 5/315.

(3) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره (الحديث رقم: 6663).

(4) سورة فصلت، الآية: 30.

(5) سورة قٓ، الآية: 29.

(6) سورة المجادلة، الآية: 21.

(7) سورة غافر، الآية: 51.

(8) سورة الإسراء، الآية: 57.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾.

﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء **﴿هو الغني﴾** علة لنفي الولد؛ لأنّ ما يطلب به الولد من يلد وما يطلبه له السبب في كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفيًا **﴿له ما في السمٰوات وما في الأرض﴾** فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولدًا **﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾** ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله: إن عندكم على أن يجعل القول مكانًا للسلطان كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان **﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾** لما نفي عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فدلّ على أن كل قول لا برهان عليه قائله فذاك جهل وليس بعلم.

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿يفترون على الله الكذب﴾ بإضافة الولد إليه **﴿متاع في الدنيا﴾** أي: افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا، وذلك حين يقيمون رياستهم في الكفر ومناصبة النبي ﷺ بالتظاهر به، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده.

۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾.

﴿كبر عليكم﴾ عظم عليكم وشق وثقل ومنه قوله تعالى: **﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾**[1] ويقال: تعاظمه الأمر **﴿مقامي﴾** مكاني يعني: نفسه كما تقول فعلت كذا لمكان فلان، وفلان ثقيل الظل، ومنه: **﴿ولمن خاف مقام ربه﴾**[2] بمعنى: خاف ربه، أو قيامي ومكثي بين أظهركم مددًا طوالاً ألف سنة إلا خمسين عامًا، أو مقامي وتذكيري؛ لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينًا وكلامهم مسموعًا، كما يحكى عن عيسى صلوات الله عليه أنه كان يعظ الحواريين قائمًا وهم قعود **﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم﴾** من أجمع الأمر وأزمعه إذا نواه وعزم عليه. قال:

هل أغدون يومًا وأمري مجمع

والواو بمعنى: مع يعني فاجمعوا أمركم مع شركائكم وقرأ الحسن: وشركاؤكم بالرفع عطفًا على الضمير المتصل وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام كما تقول: أضرب زيدًا وعمرو وقرىء: فاجمعوا من الجمع وشركاءكم نصف للعطف على المفعول، أو لأنّ الواو بمعنى: مع، وفي قراءة أُبيّ: فاجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم.

فإن **قُلْتَ**: كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء؟ **قُلْتُ**: على وجه التهكم كقوله: **﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون﴾**[3].

فإن **قُلْتَ**: ما معنى الأمرين أمرهم الذي يجمعونه وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟ **قُلْتُ**: أمّا الأمر الأوّل فالقصد إلى إهلاكه يعني: فاجمعوا ما تريدون من إهلاكي واحتشدوا فيه وابذلوا وسعكم في كيدي، وإنما قال ذلك إظهارًا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته إياه وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً، وأما الثاني: ففيه وجهان: أحدهما: أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم يعني: ثم أهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة أي: غمًا وهمًا، والغم والغمة كالكرب والكربة، والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأوّل، والغمة السترة من غمه إذا ستره ومنها قوله عليه السلام: «ولا غمة في فرائض الله»[4]، أي: لا تستر ولكن يجاهر بها، يعني: ولا يكن قصدكم إلا إهلاكي مستورًا عليكم ولكن مكشوفًا مشهورًا تجاهرونني به **﴿ثم اقضوا إلي﴾** ذلك الأمر الذي تريدون بي أي: أدّوا إليّ قطعه وتصحيحه كقوله تعالى: **﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾**[5] أو أدّوا إليّ ما هو حق عليكم عندكم من هلاكي كما يقضي الرجل غريمه **﴿ولا تنظرون﴾** ولا تمهلوني وقرىء ثم افضوا إليّ بالفاء بمعنى: ثم انتهوا إليّ بشركم، وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء أي: أصحروا به إليّ وأبرزوه لي.

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾.

﴿فإن توليتم﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي **﴿فما سألتكم من أجر﴾** فما كان عندي ما ينفركم عني وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظتكم **﴿إن أجري إلا على الله﴾** وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أي: ما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرض من أغراض الدنيا **﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾** الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئًا ولا يطلبون به دنيا، يريد أن ذلك مقتضى الإسلام والذي كل مسلم مأمور به،

---

(1) سورة البقرة، الآية: 45.

(2) سورة الرحمٰن، الآية: 46.

(3) سورة الأعراف، الآية: 195.

(4) ذكره القاضي عياض في الباب الأول من كتاب الشفاء في فصل فصاحته (الزيلعي 2/136).

(5) سورة الحجر، الآية: 66.

والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم، ويبرئ ساحته، فذكر أن توليهم لم يكن عن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه، وإنما ذلك لعنادهم وتمرّدهم لا غير.

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾.

﴿فكذبوه﴾ فتموا على تكذيبه، وكان تكذيبهم له في آخر المدّة المتطاولة كتكذيبهم في أوّلها، وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان ﴿وجعلناهم خلائف﴾ يخلفون الهالكين بالغرق ﴿كيف كان عاقبة المنذرين﴾ تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ﷺ عن مثله، وتسلية له.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾.

﴿من بعده﴾ من بعد نوح ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ يعني: هودًا، وصالحًا وإبراهيم ولوطًا وشعيبًا ﴿فجاؤهم بالبينات﴾ بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ فما كان إيمانهم إلا ممتنعًا كالمحال لشدّة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه ﴿بما كذبوا به من قبل﴾ يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق، فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كان لم يبعث إليهم أحد ﴿كذلك نطبع﴾ مثل ذلك الطبع المحكم نطبع ﴿على قلوب المعتدين﴾ والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم؛ لأنّ الخذلان يتبعه، ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾.

﴿من بعدهم﴾ من بعد الرسل ﴿بآياتنا﴾ بالآيات التسع ﴿فاستكبروا﴾ عن قبولها وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن تقبلها ﴿وكانوا قومًا مجرمين﴾ كفارًا ذوي آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤوا على ردّها.

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾.

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ فلما عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله لا من قبل موسى وهرون ﴿قالوا﴾ لحبهم الشهوات ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ وهم يعلمون أنّ الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تمويهًا وباطلاً.

فإن قلتَ[1]: هم قطعوا بقولهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ على أنه سحر. فكيف قيل لهم: أتقولون أسحر هذا؟ قلتُ: فيه أوجه: أن يكون معنى قوله: ﴿أتقولون للحق﴾ أتعيبونه وتطعنون فيه وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه من قولهم: فلان يخاف القالة، وبين الناس تقاول. إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه، ونحو القول الذكر في قوله: ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾[2] ثم قال ﴿أسحر هذا﴾ فأنكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه وأن يحذف مفعول أتقولون وهو ما دل عليه قولهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ كأنه قيل: أتقولون ما تقولون يعني: قولهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ ثم قيل: أسحر هذا وأن يكون جملة قوله: ﴿أسحر هذا﴾ ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ حكاية لكلامهم كأنهم قالوا: أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ كما قال موسى للسحرة: ﴿ما جئتم به لسحر إنّ الله سيبطله﴾[3].

قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿لتلفتنا﴾ لتصرفنا، واللفت والفتل أخوان ومطاوعهما الالتفات والانفتال ﴿عما وجدنا عليه آباءنا﴾ يعنون عبادة الأصنام ﴿وتكون لكما الكبرياء﴾ أي: الملك؛ لأنّ الملوك موصوفون بالكبر، ولذلك قيل للملك الجبار، ووصف بالصيد والشوس، ولذلك وصف ابن الرقيات مصعبًا في قوله:

ملكه ملك رأفة ليس فيه   جبروت منه ولا كبرياء

ينفي ما عليه الملوك من ذلك، ويجوز أن يقصدوا ذمّهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبرًا وتكبرًا كما قال القبطي لموسى عليه السلام: ﴿إن تريد إلا أن تكون جبارًا في الأرض﴾[4] ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ أي: مصدّقين لكما فيما جئتما به. وقرئ: يطبع ويكون لكما بالياء.

فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾.

---

(1) قال أحمد: في الفرق بين الوجهين غموض، وإيضاحه أنّ القول على الوجه الأوّل وقع كناية عن العيب، فلا يتقاضى مفعولاً، وفي الثاني على أنه يطلب مفعولاً، والله أعلم.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 60.

(3) سورة يونس، الآية: 81.

(4) سورة القصص، الآية: 19.

(5) قال أحمد: وليس المراد في القراءة الأولى الإخبار بأن ما جاؤا به سحر خاصة، ولكن مع تنزيه ما جاء به عن كونه سحراً، وإنما =

= يستفاد ذلك بما في هذا النظم المخصوص من إفادة الحصر، ولو مرت بخاطر الإمام أبي المعالي في مسألة تحريمة التكبير، لم يعدل عن الاستشهاد بها على إفادة هذا النظم الحصر، فإنا نعلم أن موسى عليه السلام حيث أطلقه، فإنما أراد إضافة السحر إلى ما جاؤا به محصوراً فيه، حتى لا يتعدى إلى الحق الذي جاء به هو منه شيء، وأما القراءة الثانية، ففيها، والله أعلم إرشاد إلى أن قول موسى عليه السلام أوّلاً أتقولون للحق لما جاءكم أسحر من هذا حكاية لقولهم، ويكون أسحر هذا هو الذي قالوه، ولا يناقض =

﴿ما جئتم به﴾ ما[1] موصولة واقعة مبتدأ و﴿السحر﴾ خبر، أي: الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وقومه سحرًا من آيات الله وقرئ: السحر على الاستفهام فعلى هذه القراءة ما استفهامية أي: أي شيء جئتم به أهو السحر. وقرأ عبد الله: ما جئتم به سحر، وقرأ أبيّ: ما أتيتم به سحر والمعنى: لا ما أتيت به ﴿إن الله سيبطله﴾ سيمحقه ويظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة ﴿لا يصلح عمل المفسدين﴾ لا يثبته ولا يديمه ولكن يسلط عليه الدمار.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٨٢﴾.

﴿ويحق الله الحق﴾ ويثبته ﴿بكلماته﴾ بأوامره وقضاياه وقرئ: بكلمته بأمره ومشيئته.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٨٣﴾.

﴿فما آمن لموسى﴾ في أوّل أمره ﴿إلا ذرية من قومه﴾ إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه، وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفًا من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف، وقيل: الضمير في قومه لفرعون والذرية، مؤمن آل فرعون، وآسية امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه، وما شطته.

فإن قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في قوله ﴿وملئهم﴾؟ قُلْتُ: إلى فرعون بمعنى: آل فرعون كما يقال: ربيعة ومضر، أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له، ويجوز أن يرجع إلى الذرية أي: على خوف من فرعون وخوف من أشراف بني إسرائيل؛ لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفًا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم ويدل عليه قوله ﴿أن يفتنهم﴾ يريد: أن يعذبهم ﴿وإنّ فرعون لعال في الأرض﴾ لغالب فيها قاهر ﴿وإنه لمن المسرفين﴾ في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتوّ بادعائه الربوبية.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾.

﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ صدقتم به وبآياته ﴿فعليه توكلوا﴾ فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون. ثم شرط في التوكل الإسلام وهو: أن يسلموا نفوسهم لله أي: يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها؛ لأنّ التوكل لا يكون مع التخليط، ونظيره في الكلام: إن ضربك زيد فاضربه إن كانت بك قوّة.

﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿٨٦﴾.

﴿فقالوا على الله توكلنا﴾ إنما قالوا ذلك؛ لأنّ القوم كانوا مخلصين لا جرم أنّ الله سبحانه قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم، وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص ﴿لا تجعلنا فتنة﴾ موضع فتنة لهم أي: عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا، أو فتنة لهم يفتتنون بنا ويقولون لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٧﴾.

تبوّأ المكان اتخذه مباءة كقولك: توطنه إذا اتخذه وطنًا والمعنى: اجعلا بمصر بيوتًا من بيوته مباءة لقومكما ومرجعًا يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه ﴿واجعلوا بيوتكم﴾ تلك ﴿قبلة﴾ أي: مساجد متوجهة نحو القبلة وهي: الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا في أوّل أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أوّل الإسلام بمكة.

فإن قُلْتَ: كيف نوع الخطاب فثنى أوّلاً، ثم جمع، ثم وحد آخرًا؟ قُلْتُ: خوطب موسى وهرون عليهما السلام أن يتبوآ

= ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا: إن هذا لسحر مبين وذلك، إما لأنّهم قالوا الأمرين جميعاً بدؤا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق، والاستهزاء بكونه حقاً، والاستهزاء بالحق إنكار له، بل قد يكون الاستفهام في بعض المواطن أبت من الإخبار، الا ترى أنهم يقولون في قوله: أأنت أم سالم، أبلغ في البت من قوله مخبراً: أنت أم سالم، ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببت الإنكار، ودعوى أنه سحر، فقالوا إنّ هذا لسحر مبين، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني، ووبخهم موسى على قولهم الأوّل، ومعنى العبارتين ومآلهما واحد، وإما إن لا يكونوا قالوا سوى أسحر هذا على سبيل الإنكار حسماً تقدّم، فحكاه الله تعالى عنهم بمآله؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار، وبت القول أنه سحر، وحكى موسى عليه السلام: قولهم بلفظه، ولم يؤدّه بعبارة أخرى، وحكاية القصص المتلوة في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة، لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية، فيترجم عنها بالألفاظ =

= المترادفة المتساوية المعاني، وحاصل هذا البحث، أن قول موسى عليه السلام أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا إنما حكى فيه قولهم، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عندما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم مستفهماً، فقال: ما جئتم به آلسحر على قراءة الاستفهام قرضاً بوفاء على السواء، والذي يحقق لك أنّ الاستفهام والإخبار في مثل هذا المعنى، مؤداهما واحد، أنّ الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام ما جئتم به هو السحر على الوجهين الخبر، والاستفهام على ما اقتضته القراءتان، وهو قول واحد دل على أنّ مؤدي الأمرين واحد ضرورة صدق الخبر، وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتعبيب، أو إضمار مفعول تقولون استشكال وقوع الاستفهام محكياً بالقول، والمحكي أولاً عنهم الخبر، وقد أوضحنا أنه لا تنافر، ولا تنافي بين الأمرين، فشدّ بهذا الفصل على التمسك، فإنه من دقائق النكت، والله الموفق.

لقومهما بيوتًا ويختاراها للعبادة وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عامًا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأنّ ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض تعظيمًا لها والمبشر بها.

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾.

الزينة ما يتزين به من لباس، أو حلي، أو فرش، أو أثاث، أو غير ذلك، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله **﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾**؟ **قُلْتُ**[1]: هو دعاء بلفظ الأمر كقوله: **﴿ربنا اطمس... واشدد﴾** وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضًا مكررًا، وردّد عليهم النصائح والمواعظ زمانًا طويلاً، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفرًا، وعلى الإنذار إلا استكبارًا، وعن النصيحة إلا نبوًّا، ولم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال وأنّ إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة، أو علم ذلك بوحي من الله، اشتد غضبه عليهم، وأفرط مقته وكراهته لحالهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره كما تقول: لعن الله إبليس، وأخزى الله الكفرة، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستاهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه كأنه قال: ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال وليكونوا ضلالاً، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا، وما عليّ منهم هم أحق بذلك وأحق كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر: إذا ما لم يقبل منه حسرة على ما فاته من قبول نصيحته وحردًا عليه لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه. ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان **﴿فلا يؤمنوا﴾** جواب الدعاء الذي هو **﴿اشدد﴾** أو دعاء بلفظ النهي، وقد حملت اللام في ليضلوا على التعليل على أنهم جعلوا نعمة الله سببًا في الضلال، فكأنهم أوتوها ليضلوا وقوله: **﴿فلا يؤمنوا﴾** عطف على ليضلوا، وقوله: **﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم﴾** دعاء معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. وقرأ الفضل الرقاشي: أئنك آتيت على الاستفهام واطمس بضم الميم.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾.

قرئ: دعواتكما قيل: كان موسى يدعو وهرون يؤمن، ويجوز أن يكونا جميعًا يدعوان، والمعنى: إنّ دعاءكما مستجاب وما طلبتما كائن ولكن في وقته **﴿فاستقيما﴾** فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلاً، ولا تستعجلا، قال ابن جريج: فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة **﴿ولا تتبعان سبيل الذين يعلمون﴾** أي: لا تتبعا طريق الجهلة بعادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلا فإنّ العجلة ليست بمصلحة، وهذا كما قال لنوح عليه السلام: **﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾**[2] وقرئ: ولا تتبعان بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيهًا بنون التثنية وبتخفيف التاء من تبع.

۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾.

قرأ الحسن: وجوزنا من أجاز المكان وجوّزه وجاوزه وليس من جوز من الذي في بيت الأعشى:

وإذا يجوزها حبال قبيلة

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال: وجوّزنا بني إسرائيل في البحر كما قال، كما جوّز السكي في الباب فيتق. **﴿فأتبعهم﴾** فلحقهم يقال: تبعته حتى أتبعته. وقرأ الحسن: وعدوًا. وقرئ: أنه بالفتح على حذف الباء التي هي صلة الإيمان وأنه بالكسر على الاستئناف بدلاً من آمنت. كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصًا على القبول ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرّة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف[3].

---

(1) قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي الذي هو أدق من دبيب النمل، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفاً، ووجه ذلك أنه علم أنّ الظاهر بل، والباطن أنّ اللام للتعليل، وأنّ الفعل منصوب بها، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأنّ الله إنما امدهم بالزينة، والأموال، وما يتبعهما من النعم استدراجاً ليزدادوا إثماً وضلالة، كما أخبر تعالى عن أمثالهم، بقوله: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ وهذا المعنى منتظم على جعل اللام للتعليل، والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في استحالة ذلك على الله تعالى، لاعتقاده أنّ من الجوار أن يملي لهم في الضلالة، ويعاقبهم عليها، فهو متبتل لما = يرد من الآيات بعمل الحيلة في تأويلها، وردّها إلى معتقده، وجعلها تبعاً له، كما تقدّم له تأويل قوله: ﴿ليزدادوا إثماً﴾ وكاين من آية غراء رام أن يستر غرتها، ويطفئ نورها بأمثال هذه التأويلات الرديئة لفظاً، وعقداً ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ثم لا يسعه إلا أن يحمل موسى عليه السلام على أمثال هذه المعتقدات، ولقد براه الله، وكان عند الله وجيهاً.

(2) سورة هود، الآية: 46.

(3) قال أحمد: ولقد أنكر منكراً، وغضب الله ولملائكته، كما يجب لهم، والله الموفق.

﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿آلآن﴾ أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك، قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق يعني حين أوشك أن يغرق، وقيل: قاله بعد أن غرق في نفسه، والذي يحكى: أنه حين قال: آمنت، أخذ جبريل من حال البحر فدسه في فيه المغضب لله على الكافر في وقت قد علم أنّ إيمانه لا ينفعه، وأمّا ما يضم إليه من قولهم: خشية أن تدركه رحمة الله، فمن زيادات الباهتين لله وملائكته، وفيه جهالتان: إحداهما: أنّ الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس فحال البحر لا يمنعه، والأخرى: أنّ من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر؛ لأن الرضا بالكفر كفر ﴿من المفسدين﴾ من الضالين المضلين عن الإيمان كقوله: ﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾(1) روي أنّ جبريل عليه السلام أتاه بفتيا: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه يقول: أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماه أن يغرق في البحر، فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل خطه فعرفه(2).

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿ننجيك﴾ بالتشديد والتخفيف نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، وقيل: نلقيك بنجوة من الأرض، وقرئ: ننحيك بالحاء نلقيك بناحية مما يلي البحر، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر. قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور ﴿ببدنك﴾ في موضع الحال أي: في الحال التي لا روح فيك وإنما أنت بدن، أو ببدنك كاملًا سويًا لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو عريانًا لست إلا بدنًا من غير لباس، أو بدرعك، قال عمرو بن معد يكرب:

أعاذل شكتي بدني وسيفي   وكل مقلص سلس القياد

وكانت له درع من ذهب يعرف بها، وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: بأبدانك وهو على وجهين: إمّا أن يكون مثل قولهم: هوى بأجرامه، يعني ببدنك كله وافيًا بأجزائه، أو يريد بدروعك كأنه كان مظاهرًا بينها ﴿لمن خلفك آية﴾ لمن وراءك من الناس علامة وهم: بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أنّ فرعون أعظم شأنًا من أن يغرق. وروي أنهم قالوا: ما مات فرعون ولا يموت أبدًا، وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدّقوه، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه وكأن مطرحه كان على ممرّ من بني إسرائيل حتى قيل: ﴿لمن خلفك﴾ وقيل ﴿لمن خلفك﴾ لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونه آية: أن يظهر للناس عبوديته ومهانته وإنّ ما كان يدّعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه عز وجل فما الظنّ بغيره، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك فلا يجترئوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على الله. وقرئ: لمن خلقك بالقاف أي: لتكون لخالقك آية كسائر آياته ويجوز أن يراد ليكون طرحك على الساحل وحدك وتمييزك من بين المغرقين لئلا يشتبه على الناس أمرك، ولئلا يقولوا لادعائك العظمة إنّ مثله لا يغرق ولا يموت آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وليعلموا أنّ ذلك تعمد منه لإماطة الشبهة في أمرك.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿مبوأ صدق﴾ منزلًا صالحًا مرضيًا وهو: مصر والشام ﴿فما اختلفوا﴾ في دينهم وما تشعبوا فيه شعبًا إلا من بعد ما قرؤا التوراة وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة وعلموا أن الاختلاف فيه تفرّق عنه، وقيل: هو العلم بمحمد ﷺ واختلاف بني إسرائيل، وهم أهل الكتاب اختلافهم في صفته ونعته وأنه هو، أم ليس به بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه كما قال الله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾(3).

فإن قلت(4): كيف قال لرسول الله ﷺ ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ مع قوله: في الكفرة ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾(5) **قلت**: فرق عظيم بين قوله: ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق، وبين قوله: ﴿فإن كنت في شك﴾ بمعنى الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك مثلًا وخيل لك الشيطان خيالًا منه تقديرًا ﴿فاسئل الذين يقرؤون الكتاب﴾ والمعنى: أنّ الله عز وجل قدّم ذكر بني إسرائيل وهم قرأة الكتاب ووصفهم بأنّ العلم قد جاءهم؛ لأنّ أمر رسول الله ﷺ

---

(1) سورة النحل، الآية: 88.

(2) ذكره القرطبي في تفسيره 8/241.

(3) سورة البقرة، الآية: 146.

(4) قال أحمد: ولو قال هذا المفسر إنّ نفي الشك عنه عليه الصلاة والسلام، توطئة لأمره بالسؤال، لتقوم حجته على المسؤولين، لا = ليستفيد بسؤالهم علماً لمزيد تعين الإبراء بقوله له: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض، قل لله﴾، فأمر بالسؤال، والجواب جميعاً، لكان أقوم وأسلم والله أعلم.

(5) سورة هود، الآية: 110.

مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوّة محمد عليه السلام ويبالغ في ذلك فقال: فإن وقع لك شك فرضًا وتقديرًا وسبيل من خالجته شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإماطتها، إمّا بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته، وإمّا بمقادحة العلماء المنبهين على الحق، فسل علماء أهل الكتاب يعني: أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علمًا بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساءلتهم فضلاً عن غيرك، فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله لا وصف رسول الله بالشك فيه، ثم قال: **﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾** أي: ثبت عندك بالآيات والبراهين القاطعة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية **﴿فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾** أي: فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله، ويجوز أن يكون على طريقة التهييج والإلهاب كقوله: ﴿فلا تكونن ظهيرًا للكافرين﴾[1] ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾[2] ولزيادة التثبت والعصمة ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: «لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق»[3] وعن ابن عباس رضي الله عنه: لا والله ما شك طرفة عين ولا سأل أحدًا منهم، وقيل: خوطب رسول الله ﷺ والمراد خطاب أمّته ومعناه: فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم كقوله: ﴿وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا﴾[4] وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك كقول العرب: إذا عز أخوك فهن، وقيل: إن للنفي أي: فما كنت في شك فاسأل يعني: لا نأمرك بالسؤال؛ لأنك شاك ولكن لتزداد يقينًا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى، وقرئ: فاسئل الذين يقرؤن الكتب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾.

﴿حقت عليهم كلمة ربك﴾ ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة: أنهم يموتون كفارًا فلا يكون غيره، وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد تعالى الله عن ذلك.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾.

﴿فلولا كانت﴾ فهلا كانت **﴿قرية﴾** واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاينة وقت بقاء التكليف ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه لم **﴿فنفعها إيمانها﴾** بأن يقبله الله منها لوقوعه في وقت الاختيار، وقرأ أبيّ وعبد الله: فهلا كانت **﴿إلا قوم يونس﴾** استثناء من القرى؛ لأنّ المراد أهاليها، وهو استثناء منقطع بمعنى: ولكن قوم يونس لما آمنوا، ويجوز أن يكون متصلاً والجملة في معنى النفي كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء، وقرئ: بالرفع على البدل هكذا روي عن الجرمي والكسائي: روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه، فذهب عنهم مغاضبًا، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة، وقيل: قال لهم يونس: إنّ أجلكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيمًا أسود هائلاً يدخن دخانًا شديدًا، ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها، فحنّ بعضها على بعض، وعلت الأصوات والعجيج وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم حتى إنّ الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: يا حي حين لا حي، ويا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت، فقالوها، فكشف عنهم، وعن الفضيل بن عياض: قالوا اللهم إنّ ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾.

﴿ولو شاء ربك﴾ مشيئة[5] القسر والإلجاء **﴿لآمن من في الأرض كلها﴾** على وجه الإحاطة والشمول **﴿جميعًا﴾** مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه، ألا ترى إلى قوله: **﴿أفأنت تكره الناس﴾** يعني: إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت، وإيلاء الاسم حرف الاستفهام للإعلام بأنّ الإكراه ممكن مقدور

(1) سورة القصص، الآية: 86.
(2) سورة القصص، الآية: 87.
(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 6/126، (الحديث رقم: 10211).
(4) سورة النساء، الآية: 174.
(5) قال أحمد: وهذا من دسه الاعتزال مخلساً، وخلط الباطل بالحق مدلساً، ولما علم أنّ الآية تقتضي عدم مشيئة الله تعالى، لإيمان الخلق بصيغة الكلية، وأنه إنما شاء ذلك ممن آمن لا ممن كفر، إذ مقتضى لولا امتناع، وكان ذلك راد لمعتقده الفاسد، إذ يزعمون = أنّ الله تعالى شاء الإيمان من جميع أهل الأرض، فلم يؤمن إلا بعضهم أخذ يحرف مشيئة الإيمان إلى مشيئة القسر، والإلجاء ليتم له أن المشيئة المرادة في الآية، لم تقع إلا أنا نوافقه على أنّ الله تعالى ما قسر الخلق، ولا سلب اختيارهم بل أمرهم بالإيمان، وخلق لهم اختياراً له، وقصداً، وهذا كما ترى لا يعد في التأويل، بل هو أجدر بالتعطيل، فوجب ردّه، وإقرار الظاهر على حاله نعوذ بالله من زيغ الشيطان، وإضلاله، والله الموفق.

عليه وإنما الشأن في المكره من هو وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه؛ لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان وذلك غير مستطاع للبشر.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وما كان لنفس﴾ يعني: من النفوس التي علم أنها تؤمن ﴿إلا بإذن الله﴾ أي: بتسهيله وهو منح الألطاف ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ قابل الإذن بالرجس وهو الخذلان والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون وهم المصرون على الكفر كقوله: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾(1) وهي الخذلان رجسًا وهو العذاب، لأنه سببه، وقرئ: ونجعل بالنون.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ماذا في السموات والأرض﴾ من الآيات والعبر ﴿وما تغني الآيات والنذر﴾ والرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ لا يتوقع إيمانهم وهم الذين لا يعقلون، وقرئ: وما يغني بالياء وما نافية أو استفهامية.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ وقائع الله تعالى فيهم كما يقال: أيام العرب لوقائعها.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ثم ننجي رسلنا﴾ معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله: إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا على حكاية الأحوال الماضية ﴿والذين آمنوا﴾ ومن آمن معهم. كذلك ننج المؤمنين مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين و ﴿حقًا علينا﴾ اعتراض يعني: حق ذلك علينا حقًا، وقرئ ننج بالتشديد.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿يا أيها الناس﴾ يا أهل مكة ﴿إن كنتم في شك من ديني﴾ وصحته وسداده فهذا ديني فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم وانظروا فيه بعين الإنصاف لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك، وهو أني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلٰهكم وخالقكم ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ وإنما وصفه بالتوفي ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقي فيعبد دون ما لا يقدر على شيء ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ يعني: أنّ الله أمرني بذلك بما ركب فيّ من العقل وبما أوحى إليّ في كتابه، وقيل: معناه إن كنتم في شك من ديني وما أنا عليه أأثبت عليه أم أتركه وأوافقكم فلا تحدثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا في أمري واقطعوا عني أطماعكم واعلموا أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولا أختار الضلالة على الهدى كقوله: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون﴾(2) أمرت أن أكون أصله بأن أكون، فحذف الجار وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارّة مع إن وأن، وأن يكون من الحذف غير المطرد وهو قوله: أمرتك الخير فاصدع بما تؤمر.

فإن قُلْتَ: عطف قوله ﴿وأن أقم﴾ على أن أكون فيه إشكال؛ لأنّ أن لا تخلو من أن تكون التي للعبارة أو التي تكون مع الفعل في تأويل المصدر، فلا يصح أن تكون للعبارة وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول؛ لأنّ عطفها على الموصولة يأبى ذلك، والقول بكونها موصولة مثل الأولى لا يساعد عليه لفظ الأمر وهو أقم؛ لأنّ الصلة حقها أن تكون جملة تحتمل الصدق والكذب **قُلْتُ**: قد سوّغ سيبويه أن توصل أن بالأمر والنهي وشبه ذلك بقولهم: أنت الذي تفعل، على الخطاب؛ لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر، والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال ﴿أقم وجهك﴾ استقم إليه ولا تلتفت يمينًا ولا شمالاً و ﴿حنيفًا﴾ حال من الدين أو من الوجه.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿فإن فعلت﴾ معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، فكنى عنه بالفعل إيجازًا ﴿فإنك إذًا من الظالمين﴾ إذًا جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدّر كأنّ سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان وجعل من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾(3).

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

اتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر أنّ الله عزّ وجلّ هو الضارّ النافع الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد فكيف بالجماد الذي لا شعور به، وكذلك إن أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان فهو

(1) سورة البقرة، الآية: 171.
(2) سورة الكافرون، الآيتان: 1 ـ 2.
(3) سورة لقمان، الآية: 13.

الحقيق إذًا بأن توجه إليه العبادة دونها وهو أبلغ من قوله: ﴿إن أرادني الله بضر هل هنّ كاشفات ضرّه أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكات رحمته﴾[1].

فإن قُلْتَ: لم ذكر المس في أحدهما والإرادة في الثاني؟ **قُلْتُ:** كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعًا الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا رادّ لما يريده منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المسّ وهو: الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر؛ ليدلّ بما ذكر على ما ترك على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى: **﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾** والمراد بالمشيئة: مشيئة المصلحة.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾.

﴿قد جاءكم الحق﴾ فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه، ومن آثر الضلال فما ضرّ إلا نفسه، واللام وعلى دلا على معنى النفع والضر، وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل، وفيه حث على إيثار الهدى وإطراح الضلال مع ذلك **﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾** بحفيظ موكول إليّ أمركم وحملكم عليّ ما أريد، إنما أنا بشير ونذير.

وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾.

﴿واصبر﴾ على دعوتهم واحتمال أذاهم وإعراضهم **﴿حتى يحكم الله﴾** لك بالنصرة عليهم والغلبة، وروي أنها لما نزلت جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني»[2] يعني: أني أمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة. قال أنس: فلم نصبر، وروي: أنّ أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم دخل عليه من بعد فقال له: مالك لم تتلقنا؟ قال: لم تكن عندنا دواب. قال: فأين النواضح؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال ﷺ: يا معشر الأنصار إنكم ستلقون بعدي أثرة. قال معاوية: فماذا قال؟ قال: قال: فاصبروا حتى تلقوني، قال: فاصبر. قال: إذن نصبر، فقال عبد الرحمن بن حسان:

ألا أبلغ معاوية بن حرب … أمير الظالمين لنا كلامي
بأنا صابرون فمنظروكم … إلى يوم التغابن والخصام[3]

عن رسول الله ﷺ: من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدق بيونس وكذب به، وبعدد من غرق مع فرعون[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة هود عليه السلام مكية

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾.

﴿أحكمت آياته﴾ نظمت نظمًا رصينًا محكمًا لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم المرصف، ويجوز أن يكون نقلاً بالهمزة من حكم بضم الكاف إذا صار حكيمًا أي: جعلت حكيمة كقوله تعالى: ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾[5] وقيل: منعت من الفساد من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح قال جرير:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم … إني أخاف عليكم أن أغضبا

وعن قتادة: أحكمت من الباطل **﴿ثم فصلت﴾** كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد، والأحكام والمواعظ، والقصص، أو جعلت فصولاً، سورة سورة وآية آية، أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد أي: بين ولخص، وقرئ: أحكمت آياته ثم فصلت أي: أحكمتها أنا ثم فصلتها، وعن عكرمة والضحاك: ثم فصلت أي: فرقت بين الحق والباطل.

فإن قُلْتَ: ما معنى ثم؟ **قُلْتُ:** ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الإحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل، وكتاب خبر مبتدأ محذوف، وأحكمت صفة له، وقوله: **﴿من لدن حكيم خبير﴾** صفة ثانية ويجوز أن يكون خبرًا بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت أي: من عنده إحكامها وتفصيلها وفيه طباق حسن؛ لأنّ المعنى أحكمها حكيم وفصلها أي: بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور.

أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾.

﴿ألا تعبدوا﴾ مفعول له على معنى: لئلا تعبدوا، أو تكون أن مفسرة؛ لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله.

وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾.

---

(1) سورة الزمر، الآية: 38.

(2) رواه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: قول النبي ﷺ للأنصار: اصبروا حتى تلقوني على الحوض (الحديث رقم: 2792) ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: الأمر بالصبر عند ظلم الولاة = (الحديث رقم: 4756).

(3) رواه عبد الرزاق في المصنف 11/60، (الحديث رقم: 19909).

(4) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، والثعلبي الزيلعي 2/142.

(5) سورة يونس، الآية: 1.